

## الغزو الفرنسي للجزائر، خلفياته وأبعاده

سباعي سيدي عبد القادر... كلية الاداب جامعة بنار



تعرضت الجزائر ما بين 1505م و1830م إلى عدة اعتداءات، وحملات بحرية أوروبية على سواحلها، وانتهت كلها بالفشل الذريع أمام صمودها، ولم تستطع تحطيم دفاعاتها، ولا قهر إرادة سلطاتها، وسكانها، فقد تعددت أسباب ذلك بتعدد هذه الحملات فكانت آخرها الحملة الفرنسية لسنة 1830م، والتي نفذت بعد حصار بحري على سواحل الجزائر العاصمة، والذي دام قرابة ثلاثة سنوات، فالشيء الذي ميز هذه الحملة، أنها جمعت كل الأسباب لتحقيق أهدافها، وهيأت لها كل الظروف لإنجاحها.

فهل كانت الحملة الفرنسية حقيقةً تأديبية بسبب حادثة المنشأة التي كان من ورائها القنصل الفرنسي ديفال؟ وهل كانت حركة الضرب موجودة فعلاً؟ أم كانت غزواً له خلفيات وبُعد؟

إن حسين باشا بعد من أن يكون رجلاً فظاً، وكل إنسان يعرفه لا يمكن بهتمة بالحشونة وسوء وقع الحادث، أو لم يقع علينا إلا نعطيه أكثر مما يستحق، وننظر إليه في إطاره الزماني والمكاني، لأن ما حدث بين البلدين قبل هذا الحادث كان أخطر، مثل قتل الوفود والتجار والرعايا، ولإدراك حقيقة الحادث علينا أولاً بالبحث في خلفيات سلوك ديفال غير الدبلوماسي، والمتعالي، والذي افتقد إلى أدنى قواعد المجالات الدولية، بل أقول مبدأ احترام الآخر، وطبيعة المناسبة.

فالسؤال الذي يبقى قائماً ومن المنطق الأخذ به: من كان وراء هذا السلوك المتعالي لديفال؟ وما هي الأيدي الخفية التي حركته؟ بدون شك السلطة الفرنسية، وقوى الضغط المسيطرة والموجهة للسياسة الفرنسية، والتي كانت لها أهداف ومصالح آنية، وبعيدة المدى تريد تحقيقها "وتكاد تتفق آراء المؤرخين اليوم، على أن ديفال القنصل الفرنسي كان قائماً بتنفيذ مؤامرة متفق عليها مع رجال حكومة فرنسا، وملكها، وهي كما يقول المؤرخ الفرنسي كاروا: خلق في سبب سمح لفرنسا بإعلان الحرب على الجزائر قصد الاستيلاء عليها".

### ١- الخلفيات الدينية للغزو الفرنسي

إن مشروع غزو الجزائر ليس بالجديد، حيث تعود فكرة وضع خطة عسكرية لاحتلال الجزائر إلى القنصل الفرنسي كيربسي، الذي بدأ يفكر في ضبط مشروع لاحتلال الجزائر منذ 1782م، وظل يفكر في ذلك طيلة تسع سنوات، إلى أن قدم مذكرة هذه إلى الخارجية الفرنسية في عام 1792م إلا أن الظروف التي كانت تعيشها فرنسا في هذه الفترة لم تسمح لها بالالتفات إلى مشروع مغامرة كهذا، وأنها لم تكن مستعدة وليست لديها القوة الكافية لمواجمة الجزائر آنذاك، والجدير بالذكر أن هذه الأخيرة قد تمكنت من استعادة مرسى وهران في نفس السنة، وهذا دليل على قوة البحرية الجزائرية، التي كان بمقدورها أن تحاصر البحرية الفرنسية في سواحلها، ومع وصول نابليون إلى السلطة، وما حققه من انتصارات، عادت فكرة الاحتلال من جديد، وكلف أحد ضباطه الجاسوس بونان في 1808م بدراسة قسط قوة ومراكز ضعف دفاعات الجزائر العاصمة وتحصيناتها، مع تقديم رسم تخطيطي جيومورفولوجي للمناطق المجاورة لها، فهذا المشروع العسكري الاستراتيجي يؤكد بأن نية العدوان كانت مبيتة، فرن القصد كان متوفراً إلا أن تنفيذ الاعتداء تأخر إلى غاية سنة 1830م.



الصليبية الأولى .

لقد أدعت حكومة شارل العاشر التي كان يرأسها بولينيك، بأن العناية الإلهية قد خصتها بهذا الإنجاز التاريخي المقدس، والرامي إلى استرداد أرضا كانت من قبل مسيحية، والتي أنجبت القديس أوغستين، مما جعل هذه الحملة صليبية في الأساس، لما أحاطها من الحجج الدينية، فوزير الحربية كليرمونت كان من المتشددين الداعين لها، والذي دعا ابن القديس لويس (أي شارل العاشر) لينتقم للدين والإنسانية، كما أكد شارل العاشر على لسان رئيس وزرائه (بولينيك) بأن احتلال الجزائر في حد ذاته يجب أن يباركه كل المسيحيين، وكل العالم المتحضر، وجاء التوقيع على صليبية الحملة بعد نجاحها على لسان رئيس أساقفة باريس، فقد خطب على أعتاب كنيسة نوتردام (باريس) عند استقباله الملك شارل العاشر قائلا: "...لقد انتصرت الإنسانية على البرية، والصليب على الهلال، فإن قفار إفريقيا تتردد فيها الآن بأشيد الإيمان..."

إن الغزو الفرنسي للجزائر كان يخدم مصالح كل الأوربيين شعوبا وحكومات، ولقد جاء في رسالة مؤرخة في 12 ماي 1830م من بولينيك رئيس الوزراء الفرنسي إلى السفير الفرنسي بلندن لإشعار بريطانيا عن أهداف الحملة ما يلي: "...أن هناك مصلحتين...إحداها تخص فرنسا بالدرجة الأولى: وهي الثأر لشرف رايتنا...ثم الحصول على تعويض مالي...أما المصلحة الثانية، التي تمه البلاد المسيحية عامة، فهي إلغاء نظام الرق، والقرصنة ودفع الجزية التي مازالت أوروبا تدفعها لولاية الجزائر". هذه الرسالة تحمل من الحجج المربنة والمصطنعة ما يجعل الرأي العام الشعبي والدولي يقتنع بأن الحملة شرعية، وليست اعتداء، فهي بذلك تخاطب المشاعر باسم الدين، وتلهب الأطماع وتحركها بالتلميح لخيرات الجزائر، حتى تكسب المعارضة الداخلية، وقد كتب في نفس التوجه وزير الدفاع الفرنسي في 1827م: "...بأن الحملة تكون لها فوائد متنوعة، لما تعانیه السياسة الداخلية من هيجان وقلق"، فهي بذلك تكون امتصاصا لما يحدث في فرنسا من صراعات وتوتر بين الليبراليين والملكيين المتطرفين، فكلاهما ساندا الحملة، ودعا إليها، وكل حسب أهدافه، فجانب الليبراليين، هناك الكاثوليك الذين عثروا في هذه الحملة على إلهاما لحرب صليبية ضد الكافر".

#### ب- البعد الاقتصادي للغزو الفرنسي للجزائر

إن الحملة الفرنسية على الجزائر قد جمعت كل أسباب تنفيذها، وذلك بغية تسب تأييد كل الأطراف سواء في الداخل أو الخارج، وخاصة البرجوازية الفرنسية، والتي تمثل قوة ضغط حقيقية في الأوساط السياسية والاجتماعية، فهذه الفئة تبني مواقفها على أساس مصالحها الاقتصادية، فإما أن يكون النظام سندا لها، أو يتكسر أمام معارضتها له، فهي بذلك من

إضافة إلى هذه المشاريع الفرنسية، هناك دلائل أخرى نستشفها من مواقف فرنسا تجاه المسألة الجزائرية في المؤتمرات الدولية، سواء في فيينا 1815م، أو في آس-لاشاييل سنة 1818م، حيث عارضت فرنسا في هذه المؤتمرات فكرة إرسال حملة بحرية أوروبية لضرب البحرية الجزائرية، لمضايقتها المصالح الأوربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد تأكدت معارضة فرنسا للعمل الجماعي الأوربي ضد الجزائر في مؤتمر لندن 1816م، حيث نوقشت هذه المقترحات، ولكن فرنسا رفضت هذا المشروع، فإستراتيجية فرنسا ارتكزت على إبعاد القوى الأوربية من التحرك ضد الجزائر، لأنها كانت تريد أن تنفرد بذلك حينما تتوفر لها شروط القوة، وتكون الظروف الدولية والداخلية مهيأة، مع خلق أسباب تخصها وحدها، لتتحجج بها أمام الدول الأوربية والإسلامية.

إن ربط قضية الجزائر بموضوع الديون، وحادثة المروحة التي أخذت متحى المساس بكرامة دولة الممثلة في شخص قنصلها، وأنه اعتداء على أمة ذات سيادة، كل ذلك ما هو ستار تخفي وراءه حقيقة الغزو، فهي مغالطة تاريخية كثيرا ما ردها وزكاها المؤرخون من الضفتين، وتفاوضوا عن طرح الموضوع في إطاره الأوسع، والحقيقي والممثل في مسألة الصراع المسيحي-الإسلامي، والذي جسدهته الحروب الصليبية عبر مراحلها، بدءا بحروب الاسترداد بالأندلس، والحملة الصليبية على بلاد المشرق الإسلامي، منذ القرن 12م، فكانت الهجمة الفرنسية على الجزائر في القرن التاسع عشر استمرارا للمعارك التاريخية بين الصليبية وامتنا الإسلامية. أو وضع الموضوع في إطاره السياسي ضمن المسألة الشرقية، باعتبار أن الجزائر كانت نابعة للدولة العثمانية بشكل أو بآخر، فحتى المسألة الشرقية هي حلقة من حلقات هذا الصراع، الذي بدأ منذ فتح القسطنطينية 1453م. أليس من المنطق التاريخي أن يعتبر هذا الغزو الفرنسي أحد أدوار هذا الصراع الكبير وفصل من فصوله المؤلمة؟ وما يدعم هذا الطرح هو فتور العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا بعد 1824م، أي مع اعتلاء شارل العاشر العرش، والذي كان متعصبا ومتطرفا لكاثوليكيته، وما كان يحيط به في بلاطه من جماعة أميين المتطرف.

فالحملة قد احتوت بشكل مذهل السياسة العامة للملكيين المتطرفين، وتجسيدا لأمانى وطموحات الكنيسة البابوية، ففي مؤتمر آس-لاشاييل سنة 1818م اقترحت أنمسا أن يعاد تأسيس منظمة فرسان القديس يوحنا في جزيرة ألبا، وأن يعهد لها، باعتبارها قوة دولية ممتدة طرد الأتراك من الجزائر، فهذه الفكرة البابوية احتضنتها فرنسا بقوة، وعملت كل ما في وسعها لتنفرد بها، وهذا ليس بالشيء الغريب، ولا الجديد، لأن فرنسا كانت البلد الأكثر عداء للإسلام، ففي أرضها وقعت الدعوة للحرب

العناصر الموححة والمحددة لمصير أي نظام سياسي، فمن هذا المنظور يمكننا فهم البعد الاقتصادي للحملة، وهذا ما أكده بيليسي Eugène Pellissier: "...على أيها (الحملة) يمكن أن تكون نافعة لتجارتنا وافتخارا لجيوشنا"، فكانت بذلك تهدف إلى تكوين مستعمرة فرنسية بشمال إفريقيا، وهذا عكس ما يقال وما أدعته فرسا، بأن حملتها موححة ضد الباي والقرصنة، وليس لها نية البقاء في الجزائر.

والشيء الذي غدى أطاع البرجوازية الفرنسية في الجزائر لما كانت تتمتع به من إمكانيات اقتصادية ضخمة قبل الاحتلال، فقد كانت أرضها خصبة ولا سيما في الشمال، تدر أنواعا مختلفة من الحبوب والفواكه، ويوجد فيها كما لاحظ الرحالة والزائرون مناجم الحديد والرصاص والملح، وغابات كثيرة كانت تفيض عن الحاجات المحلية لبناء السفن والتسخين وبناء المنازل، فهذه الإمكانيات قد أكد عليها تقرير الكونت كليرمونت تونير قبل الغزو، وقد كان في أهميته يشبه تقرير بوتان، لما وصفه عن الحالة الاقتصادية التي كانت عليها الجزائر، والتي تفري أصحاب رؤوس الأموال والمصالح التجارية لتشجيع الحملة، فقد قال أن الجزائر موانئ عديدة وسهول خصبة، وغابات صالحة لبناء السفن، وهناك مناجم الحديد والرصاص، وجبال من الملح والمواد الأخرى. وقد ركز المشجعون للحملة على الإمكانيات الاقتصادية، وخاصة على وفرة محاصيل الحبوب، والتي كانت السوق الفرنسية بحاجة ماسة إليها لما تعرضت له في سنتي 1827م و1829م من نقص في إنتاج القمح، وارتفاع في أسعار الخبز، فهذه المادة الغذائية مع الشعير هي أهم محصول زراعي ينتج بالجزائر، والذي كانت تصدر منه كميات كبيرة بجزائر ورا، فحتى البلدان المجاورة كانت تستفيد من خيرات الجزائر، وقد ذكر أحد الكتاب المعاصرين لصالح باي أن القافلة المتوجهة إلى تونس في كل شهر كانت تتألف من 150 إلى 200 بغلا كلها محملة بالمحاصيل الزراعية والسلع المصنوعة بقسنطينة، ناهيك عن القوافل المنطلقة من البياليك الأخرى، والتي تتوجه نحو بلاد المغرب وأعماق الصحراء، بالإضافة إلى الموانئ الكثيرة الواسعة التي كانت تستقبل وترسل السلع والبضائع من وإلى أوروبا والشرق.

وقد عرف ميناء الجزائر العاصمة خلال سنة 1826م دخول 42 سفينة، وخرجت منه 47، وكانت قيمة الواردات 4717000 فركا والصادرات حوالي 845000 فركا، وذلك قبل فرض الحصار البحري على الجزائر، وبعد الغزو مباشرة سجلت الواردات 6504 ألف فركا، والصادرات 1479000 فركا، فهذا الارتفاع السريع للمبادلات يبين بداية النهب الاستعماري لخيرات الجزائر.

إن وفرة الإمكانيات الزراعية والطبيعية بالجزائر قد أسال لعاب الكثيرين من السياسيين والاقتصاديين الفرنسيين، وقد هللا كثيرا لهذه الحملة،

فهنالك مشروع تقدم به أحد النواب في البرلمان، وقد نادى صاحبه بإقامة مستعمرات عسكرية شبيهة بما فعل الرومان، ودعا الأوروبيين أن يتوجهوا إلى الجزائر بدل الهجرة إلى أمريكا، وقال صاحب هذا المشروع أن احتلال الجزائر سيعوض فرسا عما فقدته في منطقة الراين، ويغنيها عن شراء بعض البضائع مثل التبغ والحرير والسكر والزيت والقطن.

فهذا المشروع يؤكد المساندة البرلمانية لحكومة شارل العاشر للمضي بسرعة نحو تنفيذ فكرة الاحتلال، ومن الذين أيّدوا الاستعمار: كانت جماعة النخبة، بالإضافة إلى ذلك هناك التجار ورجال الأعمال في الأقاليم، ولا سيما بمرسيليا، ووقفت الأوساط التجارية، وبصفة خاصة الأوساط المرسلية مع هذه الطبقة السياسية المستفيدة، فالأوساط الماركنتيلية، وبشكل خاص في مرسيليا ساهمت كثيرا في توجيهات الحكومة، فنجار مرسيليا طالبوا ليس فقط بالجزائر العاصمة، ولكن بالجزائر ككل، لأنهم يعرفون جيدا أن خيرات الجزائر موجودة في مناطقها الداخلية، أما العاصمة فما هي إلا ميناء ينحصر دوره في المبادلات فقط، كما دعا إلى ذلك الملك شارل العاشر، حيث أكد على ضرورة السيطرة على الجزائر بهدف فتح أراضي واسعة للمفائض السكاني الذي تعرفه فرسا، ولتسويق إنتاج مصانعها.

فقبل الاحتلال قامت الأوساط التجارية بتقديم الدعم المادي والمعنوي للحملة، وبدأت الأبعاد الاقتصادية تنكشف للخاص العام، مما أعطى للجانب الاقتصادي بعدا هاما لما ستجنيها فرسا من أرض الجزائر، وقد عبر عن ذلك بولينيك بقوله: " يمكن لهذه الحملة إذا تم توجيهها بشكل حسن أن تقدم لفرسا مصادر تجارية ضخمة، وتفتح أمامها طريق مصر يوما، وأن تكون همزة وصل تربط فرسا بالمناطق الأخرى لإفريقيا، فهي بوابتها، فهذا يدل على أن الحملة على الجزائر كانت بداية لحركة استعمارية واسعة النطاق.

ومما يؤكد على الأهمية الاقتصادية والإستراتيجية للجزائر، والتي زادت الدعوة إليها خاصة بعد نجاح الحملة، يمكننا أن نعود إلى تقرير حول الجمارك قدمته اللجنة الإفريقية التي أنشئت بمرسوم ملكي في 12 جانفي 1833م، إذ جاء فيه ما يلي: تتعلق المسألة قبل كل شيء بالنسبة لفرسا باستعمار جزء من إفريقيا الشمالية وإيجاد أسواق لبضاعتها والبحث عن سبيل جديد لحرثها وبحريتها، كما أكد ذلك حمدان حوجة للحكومة الفرنسية، بأنها تستطيع أن تحصل على المنافع المتوقعة في إيالة الجزائر.

إن أول ما قامت به هذه الحملة الشرسة بعد استسلام السلطة الجزائرية في 5 جويلية 1830م، هو استيلائها على خزائن الدولة، والنهب الذي قام به العسكر في القنصة، فأعلن دي بورمون للملك شارل العاشر أن

[13]- أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 267-268 . أنظر كذلك : د. محمد خير فارس ، المرجع السابق ، ص 183.

[14] - Charles Robert Ageron, Histoire Contemporaine de L'Algérie, Que sais-je ? Paris, PUF, 6ème éditions, 1972, p 6.

[15] - René Rémond , La vie Politique en France Depuis 1789, (Tome 1-1789-1848) Paris , Librairie Armond Colin op.cit, p 399 .

[16]- Eugène Pellissier De Reynaud, Annales Algériennes, Librairie Militaire, J.Dumaine, Libraire-Editeur de L'Empereur, Volume I, 1854,, p 20 .

[17]- أبو القاسم سعد الله،، محاضرات في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص149.

[18]- نفس المرجع، ص 26.

[19]- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- العهد العثماني-، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص69.

[20]- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص150.

[21] - E.Jouham, Les Opérations Maritimes Commerciales Et Industrielles A Marseille,Paris, Amyot Libraire Editeur, 1878, p 35.

[22] - Ibid .

[23]- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص27.

[24]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق ، ص263-264.

[25]- صالح عوض، المرجع السابق ، ص67.

[26]- عبد الطيف بن أشنبو، تكون التخلف في الجزائر - محاولة دراسة حدود الشبية الرئسالية في الجزائر- الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ص48.

[27] - Jean Louis Bory, La Révolution De Juillet 29 Juillet 1830, Edition Gallimard, 1972., p 244.

[28]- صالح عوض، المرجع السابق، ص69.

[29]- عبد الطيف بن أشنبو، المرجع السابق، ص47.

[30]- نفس المرجع، ص48.

[31]- حمدان بن عثمان خوجة، المرّة، المرجع السابق ، ص304.

[1] - Jean.Louis. Bory, op.cit , p 244.

[32]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، المرجع السابق ، ص262.

[33] - Marcel Marion, Histoire Financière De La France Depuis 1715, Tome V (1819- 1875), Paris, Librairie Arthur Rousseau, 1928, p 107.

[34]- Ibid .

الجزينة الجزائرية تحتوي على معادن ثمينة بقيمة 80 م.ف وأنه لم يجد إلا 48 000 644 فركا؟ وهذا ما جعل الكثير من المتبعين للحملة والمؤرخين يكذبون ادعائه، وتهمونه بعملية النهب والسرقة . وقد ذر المؤرخون أن الداى علي خوجة قد استعمل سنة 1817م، حوالي 50 بغلا كل ليلة لمدة خمسة عشر ليلة لنقل محتوى الجزينة، وقد قدر عندئذ أي في سنة 1817م أن الخزنة لم تكن تحتوي على أقل من 50 مليون دولار ذهباً، فإن قدرت تكاليف الحملة بـ 55 000 307 فركا، فقد قدمت خزينة الجزائر للميزانية الفرنسية لسنة 1830م قيمة 49017310 فركا، وذلك في الأيام الأولى للاحتلال دون حساب ما نهبت الجيوش الفرنسية من ممتلكات سكان العاصمة، والتي لم تكن تقدر بثمن، خاصة الجواهرات، والأواني الذهبية والنحاسية، فأثناء المناقشات حول ميزانية 1830م، اعترف البرلمانيون والسلطة الفرنسية الجديدة، أن الحملة العسكرية قد جلبت لفرنسا أكثر مما كلفتها.

#### المراجع

- بتعبير احمد توفيق المدني

[1] - Moulay Belhamissi, Histoire de la Marine Algérienne 1516-1830 Alger, Entreprise Nationale du Livre, p159.

[2]- حمدان بن عثمان خوجة، المرّة، تقديم و تعريب و تحقيق، محمد العربي الزيري الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 181.

[3]- أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ص186.

[4]- محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1954، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار ص ص 27-28 ؛ أنظر كذلك : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (ج1)، لأبي القاسم سعد الله، بيروت دار الغرب الإسلامي، ط3، ص255.

[5]- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (ج1) ، بيروت دار الغرب الإسلامي، ط3، ص29.

[6]- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، بيروت، مكتبة دار الشرق ط2، ص263.

[7]- Jacques Madaule, Histoire De France De Louis XIV à Napoléon III, Edition Gallimard, 1943, p 273.

[8]- Ibid .

[9]- محمد خير فارس ، المرجع السابق، ص 145.

[10]- نفس المرجع ، ص 160-161 .

[11]- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (ج1) ، المرجع السابق، ص 260 .

[12]- صالح عوض ، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر ، الزيتونة للإعلام والنشر، ص 178.